رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ٧٠٣/٢٠٠٠/د

رقم التصنيف الدولي ISSN 1605-9522

البصائر

المجلد ٤/ العدد ٢ جمادى الآخرة ١٤٢١ هـ/ إيلول ٢٠٠٠

رئيس التحرير
أ.د. نـــزار الـــريس

مساعدا رئيس التحرير
د. علـــي حجـــاج
د. عصـــام سخنـــينـــي

هيئة التحرير
أ.د. زهير محي الدين
د. راشـــد ســـلامة
د. نهـــال عمـــيرة
د. أســـامة عـــلقم
د. رائـــد قاقـــيش

أمينة السر
هنـــادة المومـــني

كل ما ورد في هذا العدد من مجلة البصائر يعبر عن وجهات نظر الكتاب أنفسهم، ولا يعبر بالضرورة عن وجهات نظر هيئة التحرير، أو سياسة جامعة البتراء

الحرف (ثم) للعطف والابتداء

د. كامل جميل ولويل
كلية الآداب-جامعة العلوم التطبيقية

الملخص

أشهر ما قيل في هذا الحرف أنه يفيد التشريك في الحكم والترتيب والمهلة، فهو أحد حروف العطف الذي اختصّ بالترتيب والمهلة ، وقد سيطر هذا التعريف على النحويين حتى كاد عمل (ثم) الثاني - وهو إفادتها الابتداء - يُنسى.

لقد أدرك الباحث ان الميّل تجاه (التشريك والترتيب والمهلة) أوقع علماء بارزين في حيرة عند محاولتهم معرفة معاني بعض الآيات الكريمة التي وردت فيها (ثم) لتفيد الابتداء ولكنهم فسروا الآيات تحت تأثير إفادة ثم (التشريك والترتيب والمهلة). لقد وقعت الحيرة في فهم قوله تعالى ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ﴾ قالوا : حواء قبل سائر البشر فلماذا رتبت هنا بعد سائر البشر. ووقع مثل ذلك في فهم ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ، ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ إذ قالوا : إن إيتاء موسى الكتاب كان قبل توصية المسلمين ، فلماذا رتبت بالحرف (ثم) بعدها ؟ ووقع مثل ذلك في فهم بيت الشعر :" إن من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد قبل ذلك جده" . قالوا: "إن سيادة الجد سابقة فلماذا رتب

تلاحقة؟" ومن هنا جيء بتأويلات كثيرة وتقديرات غامضة ، ولا يسهل علينا الإحاطة بها، فوجب بذل الجهد لمعرفة الحقيقة وتيسيرها.

ويرى الباحث أن الحل يسير بإذنه تعالى ، ومفاده ألا يسيطر علينا التعريف المشهور للحرف (ثم) وهو إفادة التشريك والترتيب والمهلة ، فإن هناك عملا آخر لهذا الحرف وهو إفادته الابتداء. إن الأخذ بهذا الوجه في مختلف الآيات التي وقع فيها الإشكال كفيل بالحل الواضح السهل ، فإن فهم قوله تعالى ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾ على ان الجملة بعد (ثم) هي جملة جديدة مستأنفة ، لأن الحرف (ثم) فيها للابتداء ، فلا نعطف جعل على خلق ، وإنما تكون كلمة (جعل) جزءا من جملة اسمية بدأت بالحرف (ثم) الذي يفيد الابتداء ويقدر المبتدأ بالضمير هو ؛ وبهذا يزول الإشكال عن فهمنا لهذه الآية وما ماثلها من الآيات الكريمة ، إن المعنى بعد (ثم) معنى جديد ؛ وقد كان لهذا المعنى ميزة، فهو لبيان هدف قيم وإظهار فضيلة جيدة ، وقد تناول البحث ذلك بعدة أمثلة .

إذاً لا بد من معرفة عمل (ثم) في الموضع الذي وردت فيه ، وبذلك يظهر المعنى واضحا ولا نحتاج اللجوء الى التأويل .

In The Name of Allah, The Most Gracious, The Most Merciful

Dr. Kamel Jameel Wolweel
Faculty of Arts
University of Applied Sciences

Abstract

The particle "Thumma " (Then) for Co-ordination and re-Initiation . This particle is most widely recognized as implying participation, order and time limit. It is one of the co-ordinating conjunctions which is used specifically for order and time limitation. This definition has become so prominent among grammarians to the extent that the other function of "Thumma" is, that it implies initiation, was about to be forgotten .

The researcher has realized that the tendency towards "participation order and time limit has caused eminent grammarians to get confused when they attempted to understand the meaning of some holy Ayat which include this particle. "Thumma" appeared to signify initiation. But these grammarians interpreted the Ayat by the function of participation, order and time limit in mind . Confusion prevails in understanding the Qur`anic verse " He created you (all) from a single person then created, of him this like of his nature, his mate " . Interpreters maintain that Eve was created first so why she came last in this text? The same applies to the verse " Thus doth the command to you that ye may be righteous. Moreover, we gave Moses the Book ".

Grammarians concluded that giving Moses the Bock occurred before commanding the Muslims. So why the former

was put last by using "Thumma" ?. The same applies to the following line of poetry : That who become a master then his father did , Then before that his grandfather dominated .

Grammarians argued that the grandfather becoming a master was first so why it was mentioned last. Therefore, a number of interpretations and vague guesses emerged, it is beyond the scope of this study to cite them all. Were these interpretations presented by ordinary grammarians we could have overlooked them. But these interpretors where eminent grammarians. Therefore it is deemed necessary to work hard towards more acceptable interpretations .

The researcher believes that the solution is , to God's willing, easy and attainable. In that the widely known definition of the particle "Thumma" ; i.e, that it functions as participation, order and time limit, should not dominate our thinking. This particle has another function; namely, re-initiation. Adopting this interpretation in the various Qur`anic verses in which confusion has obtained would provide a clear and easy solution. Therefore, we may understand the holy Ayat " He created you (all) from a single person then created, of like nature, his mate ",where the sentence after "Thumma" (then) is a new and resumed sentence because the particle "Thumma" is used for initiation. Hence, the verb "ja`ala" must not be coordinated to the verb khalaqa (created) the word Ja'ala is part of the nominal sentence which starts with "Thumma" which means initiation and the predication is implied as "He". Thus, the confusion is removed in understanding this holy verse, as well as others similar to it. The meaning after "Thumma" is a new meaning which has the advantage of showing a significant aim and disclosing on important virtue. This paper gives a number of examples on this issue .

Then, we should realize the function of "Thumma" in the position where it occurs, so the meaning becomes clearer and we do not need to resort to interpretations .

المقدمة :

للعطف عدة حروف، ولكن الواو والفاء وثم هي الحروف الرئيسية في هذه الحروف وهي أكثر من غيرها في الاستعمال . ولنا وقفة الآن مع حرف العطف ثم.

يستفاد بهذا الحرف (ثم) التشريك والترتيب والمهلة. ويُعنى بالتشريك أن يكون المعطوف والمعطوف عليه بحركة إعرابية واحدة، وحكمهما واحداً، فإذا قلت: قرأتُ كتاب الأدب ثم كتاب التاريخ، فإن المعنى أن القراءة وقعت على الكتابين، وأن الحركة في المعطوف والمعطوف عليه واحدة. ويُعنى بالترتيب أن قراءة كتاب الأدب كانت سابقة على قراءة كتاب التاريخ، ويُعنى بالمهلة أن قراءة كتاب التاريخ جاءت بعد فترة من الزمن وليست معاقبة لقراءة كتاب الأدب، فهذه الأحكام الثلاثة هي أشهر ما يميز هذا الحرف عن غيره.

ولكن تعدد الآراء، وتنوع النظرات وامعان الفكر، أدت إلى خلافات في بحث حرف العطف (ثم)، فلم تسلمْ قاعدة: التشريك والترتيب والمهلة من الاعتراض والنقد والتعقيب، فهناك من ذهب إلى أن (ثُمّ) لا تفيد الترتيب في قوله تعالى: ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ﴾[1] ، فإن خلق الناس كان بعد جعل الزوجة، وتمت آيات متعددة تشير إلى أن حواء خلقت من آدم، وثمت أحاديث شريفة تشير إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم، وبعد ذلك خلق البشر كسلالة إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله تعالى.

وهناك من رأى أنها لا تفيد التشريك في قوله تعالى : ﴿ قل اللهُ ينجيكم منها ومن كل كرب ثُمّ أنتم مشركون ﴾[2] إن ما بعدها مبتدأ، ولكن ما قبلها مضاف إليه مجرور، وسنرى في أثناء البحث أنّ هناك من رأى أنها لا تفيد الترتيب.

ويقصد هذا البحث إلى تناول مختلف الأفكار التي لم تتفق مع قاعدة: التشريك والترتيب والمهلة، وليس لنا من بُدّ من التوقف عند استدلالات النحويين الذين قالوا بتلك الأفكار، وهذا أمر ضروري لإزالة ما يحار الذهن به والأفكار المتعارضة، وبالله التوفيق.

ثُمَّ – للترتيب والمهلة:

هذا الحرف من حروف العطف، فهو يفيد: التشريك والترتيب والمهلة. إن سائر حروف العطف تشرك بين المعطوف والمعطوف عليه، فتجد المعطوف مرفوعاً إذا كان المعطوف عليه مرفوعاً، وتجده منصوباً إذا كان المعطوف عليه منصوباً، ولكن الترتيب خاص بحرفين هما: الفاء وثم، فأما الفاء فتفيده من دون مهلة، ولكن (ثم) تفيده مع المهلة، هذا هو عمل هذا الحرف المشهور لدينا.

ولكنك ما أن تخوض في البحث في شرح ابن عقيل، وشرح الأشموني، ومغنى اللبيب والجنى الداني حتى تلاقيك آراء تخلط الأمور خلطاً شديداً. إن هذا الخلط يضطر الباحثين إلى الفرز، وعسى أن يستطيعوا ذلك، فإذاً يقدمون علماً نافعاً؛ لأن وحدة الرأي في أي موضوع ومنها موضوع (ثم) سيظل مفيداً للدراسة اللغوية والنحوية. وسوف نبدأ بذكر آراء العلماء الذين قالوا بإفادتها للترتيب والمهلة والتشريك.

وأول هذه الآراء لسيبويه إذ قال "ومنه مررت برجل راكب فذاهب استحقهما إلا أنه بين أن الذهاب بعد الركوب وأنه لا مهلة بينهما وجعله متصلاً به، ومنه مررت برجل راكب ثم ذاهب فبين أن الذهاب بعده وأنّ بينهما مهلة وجعله غير متصل به فصيّره على حدة"[٣]

وتلقف الفقيه الأسنوي هذا الرأي وأجراه على مسائله الفقهية إذا قال "لو قال رجل لعبده إن صمت يوماً ثم يوماً آخر فأنت حر، إنه لا يكفي اليوم الذي

بعد الأول لأنه متصل به إذ الليل لا يقبل الصوم فلابد من الفصل بيوم لما ذكرناه ولتمييز (ثم) عن الواو"[٤]

وقال ابن عقيل: "والفاء للترتيب باتصال، وثم للترتيب بانفصال أي تدل الفاء على تأخر المعطوف عن المعطوف عليه متصلاً به، و(ثم) على تأخره عنه منفصلاً أي متراخياً، ومنه قوله تعالى: ﴿الذي خلق فسوى﴾، وجاء زيدٌ ثم عمروٌ ومنه قوله تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفةٍ﴾[٥].

إن بعض النحاة يهملون ذكر التشريك لوضوحه، ولكن المثليين اللذين ذكرهما ابن عقيل يتضمنان التشريك واضحاً، فقد رفعت كلمة (عمرو) لعطفها على اسم مرفوع هو (زيد)، وجُرّت كلمة نطفة لأنها مسبوقة بحرف جر وقد عطفت شبه الجملة من نطفة على شبه الجملة من ترابٍ. وفكرة ابن عقيل تعبر عن القاعدة المعروفة لـ (ثم)، وقد دلت عنده على الأمور الثلاثة في قاعدة (ثم) النحوية وهي: التشريك، والترتيب، والمهلة.

وقال السيوطي في كتابه الاتقان "ثم حرف يقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، والترتيب والمهلة"[٦] ، وبهذه العبارة يذكر القاعدة المشهورة بكل وضوح وجلاء.

ولم يبتعد الأشموني عن القاعدة السابقة، وقد فسر بيت ألفية ابن مالك الذي ورد فيها عن حروف العطف، قال الأشموني:

"فالعطف مطلقاً بواو ثم فا حتى أم أو كفيك صدق ووفا" ، فالحرف (ثم) هو أحد حروف العطف، ثم أكمل الأشموني: "وثم للترتيب بانفصال، أي بمهلة وتراخٍ نحو: أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره"[٧] ، لقد جاء الأشموني على ذكر الأركان الثلاثة لهذا الحرف وهي: العطف أي تشريك الحكم، ثم الترتيب والمهلة.

وعززت أفكار ابن هشام تلك القاعدة تعزيزاً قوياً، قال ابن هشام: "إذا قيل جاء زيد ثم عمروٌ فمعناه أن مجيئ عمروٍ وقع بعد مجيئ زيدٍ بمهلة، فهي مفيدة أيضاً لثلاثة أمور: التشريك في الحكم ولم أنبه عليه لوضوحه، والترتيب والتراخي"(٨).

وتناول ابن الحاجب قاعدة (ثم) تناولاً متميزاً، فهو يذكر الركن ثم يشرحه، قال: "وثم معناها الترتيب إلا أن بينهما مهلة، وقد فارقت الواو بالترتيب، وفارقت الفاء بالمهلة، وقول سيبويه في قولهم: مررت برجل ثم امرأةٍ، فالمرور ههنا مروران، لأنه لما دلت (ثم) على المهلة، وجب الحكم بانقطاع المرور بالرجل قبل المرور بالمرأة، فيكون المرور بالمرأة مروراً ثانياً"(٩).

وأخيراً أذكر هذا الرأي المعزز لقاعدة (ثم) وهو للمرادي الذي رأى أن ما خالف هذه القاعدة قام على التاويل، قال المرادي: "ثم حرف عطف يشرك في الحكم، ويفيد الترتيب بمهلة فإذا قلت: قام زيدٌ ثم عمروٌ، آذنت بأن الثاني بعد الأول بمهلة، هذا مذهب الجمهور، وما أوهم خلاف ذلك تأولوه"(١٠).

ليت أمور هذا الحرف جرت بيسر وسهولة عند مختلف العلماء، وليت العلماء السابقين تمسكوا بوحدة الرأي والقاعدة ولم يؤولوا كثيراً، إذاً لأراحوا الدارسين بعدهم ولكن هذا لم يحصل.

التأويل والتناقض:

أ- صور أولية فيه:

كان التأويل كبيراً، وكان التناقض مثل ذلك، وقد تشعبت الآراء في أركان هذا الحرف أيما تشعب، فلا هم قالوا بالتشريك واتفقوا عليه، ولا هم اتفقوا على المهلة والترتيب، حتى العلماء الذين سبق ذكرهم يغيرون ويبدلون عندما يتعمقون أكثر في بحث هذا الحرف، وعندما تكثر أمثلتهم. وإليك صورة مما جرى:

قال ابن مالك: "وقد تقع الفاء موقع (ثم)، وثم موقعها...، وقد تقع في عطف المقدم بالزمان اكتفاءً بترتيب اللفظ"[١١] ، وبقوله هذا ألغيت المهلة من (ثم) وألغي الاتصال من الفاء.

وقال الأشموني: "وقد توضع (ثم) موضع الفاء، كقوله:

كهزّ الرديني تحت العجاج جرى في الأنابيب ثم اضطرب"[١٢]

لقد عزز الأشموني رأي ابن مالك، فأسقط بذلك المهلة عن (ثم).

وقال ابن الحاجب في (إيضاحه) وهو يشرح الآية الكريمة "وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ثم اهتدى"[١٣]، قال: "وأجاب عن (ثم) بأن المراد بقوله تعالى "ثم اهتدى" ثم دام على ذلك، لأنَّ الغفران متوقف على العاقبة، وهو ظاهر في الجواب، ويجوز أن يكون المراد بقوله(ثم اهتدى) إلى سلوك فيما يقع له من الوقائع بعد ذلك"[١٤].

ومن حقنا أن نتساءل: لماذا أضاف المداومة مع فعل واحد هو (اهتدى) وترك سائر الأفعال وهي: تاب وآمن وعمل دون إضافة المداومة إليها؟ لماذا لم يقل تاب ودام على ذلك وآمن ودام على ذلك وعمل صالحاً ودام على ذلك؟ إن الأعمال الثلاثة الأولى أي تاب وآمن وعمل وردت في سورة الفرقان، قال سبحانه ﴿ ومن يفعل ذلك يلق آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلُد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾[١٥].

لقد بانت النتيجة بالأعمال الثلاثة: تاب، وآمن، وعمل صالحاً، فلماذا يقول ابن الحاجب: ثم دام على ذلك لأن الغفران متوقف على العاقبة، لقد أعطى (ثم) معنى العطف والتشريك والترتيب والمهلة، فكانت (اهتدى) فيما يظن مكملة للأفعال الثلاثة السابقة، ولكن الله تعالى ذكر في سورة الفرقان أن الأعمال الثلاثة تُدخل الجنة وتبدل السيئة إلى حسنة، ولم تنتظر هذه

الأعمال الثلاثة شيئاً رابعاً؛ وهذا يعني أن المداومة التصقت بالأركان الثلاثة التوبة والإيمان والعمل الصالح.

وتناول الزمخشري الآية ذاتها في معرض حديثه عن حروف العطف الثلاثة: الفاء وثم وحتى فقال: "والفاء وثم وحتى تقتضي الترتيب إلا أن الفاء توجب وجود الثاني بعد الأول بغير مهلة وثم توجبه بمهلة، ولذلك قال سيبويه: مررت برجل ثم امرأة، فالمرور ههنا مروران ونحو قوله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ وقوله تعالى: ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ محمول على أنه لما أهلكها حكم بأن البأس جاءها وعلى دوام الاهتداء وثباته"(١٦).

تلك نظرة الإمام الزمخشري أنه لما أهلكها حكم بأنّ البأس جاءها، لقد أوّل ليوائم بين مجيء الهلاك أولاً ثم البأس، وربما يكون لهذه الآية بفضله تعالى شرح أوفى وأقرب إلى الذهن، ولم تكن نظرة الزمخشري في عبارة (ثم اهتدى) إلا من الوتيرة ذاتها التي ذكرت عن (فجاءها بأسنا)؛ وكلا الشرحين يحتاج إلى إعادة النظر.

ونستمر في تلمس ظواهر التأويل في (ثم)، وهذا يعطينا حماسةً أشد في إيجاد الحل السهل المناسب في لساننا العربي المبين.

قال سيبويه: "وتقول وحياتي ثم حياتك لأفعلنَّ، فثمّ ههنا بمنزلة الواو، وتقول: والله ثم الله لأفعلنّ، وبالله ثم الله لأفعلنّ، وتالله ثم الله لأفعلنَّ "(١٧).

لقد أزال سيبويه ما تحمل (ثم) من معانٍ معروفة وهي: الترتيب والتراخي، ولكن المساواة بين (وحياتي وحياتك لأفعلنَّ) و(وحياتي ثم حياتك لأفعلن) لا تنطبق، فلابد من تحسس الفرق بينهما؛ فالأولى تشريك مجرد تشريك، ولكن الثانية تفيد التراخي، فلا يقسم الرجل بك إلا بعد أن طمأنك إلى القسم بنفسه، وأنه أزال عنك شبهةً ربما خطرت ببالك عن صدقه وأمانته.

ب- خطوات أشدُّ في التأويل:

نتناول الآن تشعيباً أكثر لدى النحاة وجدلاً نحوياً أشد حول (ثم) وتعريفها الذي يتناول التشريك والترتيب والمهلة، وسنجد آراءً تلغي القاعدة كلها أحياناً.

قال الأشموني: "وأما نحو ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾ و﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ثم آتينا موسى الكتاب تماماً﴾ ، وقول الشاعر:

إنّ من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جدّه

فقيل (ثم) فيه لترتيب الأخبار لا لترتيب الحكم، وأنه يقال بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب، أي ثم أخبرك أن الذي صنعته أمس أعجب، وقيل إنّ (ثم) بمعنى الواو، وقيل غير ذلك"(١٨).

كما يبدو فإن ما هو (غير ذلك) كثير، فإنّ الأشموني يكمل أقواله في الموضع ذاته بما يلي: "زعم الأخفش والكوفيون أن (ثم) تقع زائدة فلا تكون عاطفة البتة، وحملوا على ذلك قوله تعالى: ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ جعلوا تاب عليهم هو الجواب و(ثم) زائدة"(١٩).

لقد ظهر لنا من أفكار الأشموني أن (ثم) فقدت ركناً من أركانها وهو ترتيب الحكم، وأحل ترتيب الأخبار محل ترتيب الحكم، وظهر أيضاً أنه يحذفها من الكلام نهائياً، إذ هي فيما يرى زائدة، ولكن ابن هشام رأى أن الترتيب الإخباري مردود وقال: "وغير هذا الجواب أنفع منه لأنه يصحّح الترتيب فقط لا المهلة إذ لا تراخي بين الإخبارين"، وردُّ ابن هشام على الترتيب الإخباري قوي؛ لأن الذي يعطيك خبراً عن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ويخبرك عن هجرة أبي بكر الجزائري إلى مكة المكرمة، لا تراخي لديه في الزمن فإن الخبرين يقولهما مجتمعين في لحظة واحدة وإن كان الفرق بين الهجرتين خمسة عشر قرناً.

ولكن ابن هشام أصاب من التأويل أيضاً ما أصابه الآخرون، وربما أوّل أكثر منهم، لقد أول في (ثم) أربعة تأويلات في آية واحدة، والآية المقصودة هي: ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾، قال ابن هشام: "(١) إن العطف على محذوف أي من نفس واحدة أنشأها ثم جعل منها زوجها، (٢) إن العطف على واحدة تأويلها بالفعل أي من نفس واحدة انفردت ثم جعل منها زوجها (٣) إنّ الذرية أُخرجت من ظهر آدم كالذر ثم خلقت حواء من قصيراه (٤) إنّ خلق حواء من آدم لما لم تجر العادة بمثله جيء بثم إيذاناً بترتبه وتراخيه في الإعجاب وظهور القدرة لا لترتيب الزمان وتراخيه"[٢٠] . لقد اضطر ابن هشام لتقدير كلمة أنشأها في تأويله الأول، ولكن كلمة أنشأ تعني خلق، وقد ذُكر الفعل خلق، فالتأويل هنا متكلف وكأنك مضطر لهذا وإلا لم تقله. وأظن أن الذي اضطره لذلك هو المحافظة على الأمور الثلاثة في حرف العطف (ثم) أي التشريك والترتيب والمهلة؛ وكان الأولى أن يلتفت إلى أنّ هذا الحرف له عمل آخر، وإذاً يريح ويستريح، ولا أظن التأويلات الثلاثة أقل بعداً من الأول.

وأما المرادي الذي خصص مؤلفاً من مؤلفاته في بحث حروف المعاني، فقد مال إلى رأي الزمخشري ميلاً شديداً، ومال إلى تفسيره كما ورد في الكشاف، قال المرادي:

"قال الزمخشري: فإن قلت ما وجه قوله تعالى ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وما تعطيه (ثم) من معاني التراخي؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات التي عددها دالاً على وحدانيته وقدرته وتشعيب هذا الخلق الفائت الحصر من نفس آدم وخلق حواء من قصيراه إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة، والأخرى لم تجر بها العادة ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل، فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع فعطفها بـ (ثم) على الآية الأولى، للدلالة على مباينتها

فضلاً ومزية وتراخيها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود"[٢١].

لقد رأى الزمخشري أن (ثم) فقدت إحدى وظائفها الأساسية وهي (التراخي) لأن التراخي أحد أركانها الثلاثة، فاصطنع للموقف تراخي الحال وتراخي المنزلة، وإنه يصعب جداً فَهْمُ تراخي الحال والمنزلة، وإن كانت عبارته "فعطفها بـ (ثم) على الآية الأولى للدلالة على مباينتها فضلاً ومزية" تستحق منا الاهتمام، وسنتناوله إن شاء الله تعالى في شيء مما سيأتي، ولكنا نظل مع هذه التأويلات المتشعبة في (ثم) قبل أن نتناول أي شيء آخر.

لقد أخذ المرادي عن عدد من العلماء إلى جانب أخذه عن الزمخشري، قال المرادي: "وذهب الفراء فيما حكاه عنه السيرافي والأخفش وقطرب فيما حكاه أبو محمد عبد المنعم بن الفرس في مسائله (الخلافيات) عنه إلى أن (ثم) بمنزلة الواو لا ترتب، ومنه عندهم ﴿خلقكم من نفسٍ واحدة ثم جعل منها زوجها﴾ ومعلوم أن هذا الجعل كان قبل خلقنا"[٢٢].

وأما الفقيه الأسنوي الذي يجعل النحو أساساً من أسس فهم الأحكام الشرعية فقد تبنى في آرائه اتجاهين أحدهما: أنها حرف عطف للترتيب والتراخي، وثانيهما أنها لا تدل على الترتيب، قال الأسنوي: "ثم من حروف العطف، ويجوز إبدال ثائها فاءً وأن يلحق آخرها تاء التأنيث متحركة تارةً وساكنة تارة أخرى، وهي تفيد الترتيب لكن بمهلة، وقيل تستعمل أيضاً للترتيب بلا مهلةٍ كالفاء، وقال الفراء والأخفش وقطرب إنها لا تدل على الترتيب بالكلية"[٢٣].

ولعل أفكار السيوطي كانت أوسع الأفكار في تناول الآيات التي وقعت فيها (ثم) وأثرت في جدل النحويين وتشعب آرائهم، وربما كانت الصورة التي عرضها معبرة عن أكثر آراء النحاة، وليس في ذلك من عجب فإنه قد حفظ

لأمتنا علماً كثيراً في كتبه العديدة القيمة؛ وهذه ثم كما عرضها تشريكاً وترتيباً ومهلة أو ما كان عكس ذلك، قال السيوطي: "وفي كل خلاف، أما التشريك فزعم الكوفيون والأخفش أنه قد يتخلف بأن تقع زائدة فلا تقع عاطفةً البتة، وخرجوا على ذلك ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم﴾[٢٤]، وأجيب بأن الجواب فيها مقدر، وأما الترتيب والمهلة فخالف قوله في اقتضائها إياه، وربما تمسّك بقوله تعالى: ﴿خلقكم من نفسٍ واحدة ثم جعل منها زوجها﴾[٢٥]. وقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهين ثم سواه﴾[٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾[٢٧]، والاهتداء سابق على ذلك. وقوله تعالى: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ثم آتينا موسى الكتاب﴾[٢٨]، وأجيب عن الكل بأن (ثم) فيها للترتيب الإخباري، لا لترتيب الحكم. قال ابن هشام وغير هذا الجواب أنفع منه لأنه يصحح الترتيب فقط لا المهلة، إذ لا تراخي بين الإخبارين، والجواب المصحح لهما ما قيل في الأولى أن العطف على مقدر أي من نفسٍ واحدة أنشأها ثم جعل منها زوجها، وفي الثانية أنّ سوّاه عطف على الجملة الأولى لا الثانية، وفي الثالثة أن المراد ثم دام على الهداية وفي الرابعة فائدة: "أجرى الكوفيون (ثم) مجرى الفاء والواو في جواز نصب المضارع المقرون بها بعد فعل الشرط وخرج عليه قراءة الحسن. ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت﴾ ينصب يدركه"[٢٩].

ماذا بقي لنا من القاعدة النحوية المشهورة: ثم حرف عطف للتشريك والترتيب والمهلة! لقد بان لنا أن التشريك قد يتخلف، وأن المهلة قد تتخلف، وأن الترتيب ليس له اقتضاء ثابت، وأن ثم والواو والفاء تتبادل المواقع، وأن التشعيب والتقدير يمنع من الاتفاق على راي واحد. إن اللغة فيها ما في البحر من ظواهر

واضحة أو شواطئ جميلة غير أنها تنطوي كذلك على لجج وغوامض عويصة، وإذاً أنت مضطر لدراسة النصوص وما حولها لتستطيع إدراك عمل الحرف (ثم) في الجملة التي ورد فيها، وإن هذه هي طبيعة الدراسات اللغوية قد يحار المرء في بعض الحالات ولكننا نستمر في بحثنا إلى أن يهيء الله تعالى لنا من أمرنا رشدا.

أمثلة الخلاف والتأويل:

سنذكر جميع الأمثلة التي وقع فيها الخلاف والتأويل، وسنرى كيف تجري هذه الأمثلة مع القاعدة النحوية لحرف العطف (ثم) وهي: أنه حرف يفيد التشريك والترتيب والمهلة، وسنضع أيدينا على الوضع الذي كان محل الخلاف والتأويل، ويغلب على الظن أن لغتنا الشريفة فيها من الاتساع ما يجعلنا نفهم سر الخلاف فنجد حلاً له؛ وإليك هذه الأمثلة:

١- قوله جلت قدرته: ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾- الزمر/٦.

٢- قوله جلت قدرته: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾-سورة طه/٨٢.

٣- قوله جلت قدرته: ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين ثم سواه ﴾ سورة السجدة ٨.

٤- قوله جلت قدرته: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ثم آتينا موسى الكتاب﴾. سورة الأنعام/١٥٣-١٥٤.

٥- قوله جلت قدرته: ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾-سورة التوبة ١١٨.

تلك هي الأمثلة القرآنية التي ذكرها النحاة عند بحثهم في العطف، وقد أول موضع (ثم) فيها أيما تأويل، وهذه الأمثلة هي الأصل لأن الفصاحة والأصالة تتجسد فيها.

وأما الأمثلة غير القرآنية فهي كما يلي:

١- قول الشاعر:

إنّ من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جدّه[٣٠]

٢- وقول الشاعر:

كهز الرديني تحت العجاج جرى في الأنابيب ثم اضطرب[٣١]

٣- وقول من قال: بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب

إن الأمثلة السابقة واسعة الانتشار، فقد وردت في مختلف كتب النحو القديمة كالمغني وشرح الأشموني والجني الداني والمفصل وغيرها، وأما ما عداها من الأمثلة فلم يكن عاماً، وإنما كان أمثلة محدودة، كلٌ ومثله، ولكنها لا تخرج عن إطار ما سبق.

استعمال (ثم) في بيتي الشعر:

إن البيت الأول: كهز الرديني.... ثم اضطرب" جاءت كلمة (ثم) ضرورة من ضرورات الشعراء، إذ إن الشعراء تأخذهم ضرورات الوزن والقافية، ولذلك يخرجون أحياناً عن القول المألوف. وأما البيت الثاني الذي يبدو تكلُفهُ لأي قارئ "إن من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد قبل ذلك جده"، فهو لأبي نواس ولهذا الشاعر تفكهات كثيرة، وهو خارج نطاق دائرة الاستشهاد، ولذلك لا نتوقف كثيراً عند قوله لنستنتج منه قواعد نحوية.

وأما المثل: أعجبني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب، فإن أسلوبه ليس بعيداً عن ﴿خلقكم من نفسٍ واحدةٍ ثم جعل منها زوجها﴾، ومعرفة ما

في الحرف (ثم) من أثر في فهم الآية سيكشف لنا أثر (ثم) في هـذا المثـل وأي مثل آخر مشابهٍ.

استعمال (ثم) في الآيات الكريمة:

إن هذه الطائفة من حروف العطف: الواو، والفاء، وثم لها قاسم مشـترك في عملها، فهي أبرز حروف العطف، وقد ذكر النحاة مجالات اللقاء بينها كمـا ذكروا مجالات الخلاف؛ فلابد إذاً من الانتفاع بمواضع استعمال الـواو والفـاء: تشريكا وترتيباً وجمعاً ومهلة وغير ذلك، لأن هذا الربط بيـن اسـتعمال الـواو والفاء وثم كفيل بحل الإشكالات كلها؛ وكفيل بفهم موضع (ثم) في هذه الآيـات التي ظن بعض النحاة أنها مخالفة لاستعمال (ثم) المعروف، فابتدروا التـأويل؛ وسنعرض لمواقف العلماء من ارتباط هذه الطائفة من حروف العطف بعضـها ببعض.

ثم – تماثل الحرفين الفاء والواو:

ذكر النحاة (الواو) كحرف عطف وجعلوا له وظائف عدة يقوم بها، ولكن أبرزها: واو العطف وواو الاستئناف، كما ذكروا الفاء مثل ذلك، فـهي لديـهم للعطف والاستئناف ولها وظائف أخرى. إذاً أول شيء يحاولـه البـاحث هـو التركيز على مسألة الاستئناف، هل (ثم) حرف العطف يفيد الاستئناف كما يفيـده الواو والفاء أم لا يفيده.

ثمة إشارات عديدة لدى النحاة تلمس هذه النظرة، ولكنها لا تركز عليـها، إنها فيما فهمت من أقوالهم موجودة ولكنها لم تأخذ حظّها من التطبيق والإيضاح، وهذه مجموعة من الأفكار النحوية معزوة لأصحابها من النحاة وهـي تتنـاول الارتباط بين (ثم) والواو والفاء.

قال ابن هشام: "أجرى الكوفيون (ثم) مجرى الفاء والـواو فـي جـواز نصب المضارع المقرون بها بعد فعل الشرط واستدل بقراءة الحسن "ومن يخرج

من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله" بنصب يدرك، وأجراها ابن مالك مجراهما بعد الطلب، فأجاز في قوله صلى الله عليه وسلم: لا يبولن أحدُكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل منه، الرفع بتقدير: ثم هو يغتسل، وبه جاءت الرواية، والجزم بالعطف على موضع فعل النهي، والنصب قال بإعطاء (ثم) حكم واو الجمع، فتوهم الإمام أبو زكريا النووي رحمه الله أن المراد إعطاؤهما حكمها في إفادة معنى الجمع، فقال: لا يجوز النصب لأنه يقتضي أن المنهي عنه الجمع بينهما دون إفراد أحدهما وهذا لم يقله أحد، بل البدل منهيّ عنه سواء أراد الاغتسال فيه أو منه أم لا"[٣٢].

إذن يثبت ابن هشام برأي الكوفيين أنّ (ثم) تنصب المضارع في الحالة المشار إليها، ويثبت ابن مالك أن (ثم) ترفع الفعل المضارع بعد الطلب وتجزمه أيضاً، ولكنه يقول (وبه جاءت الرواية) أي بالرفع، ويثبت ابن مالك أيضاً أن (ثم) تنصب فتقوم بذلك بعمل الواو التي من شأنها إفادة الجمع مطلقاً. إذ حُكم (ثم) أن يرفع ويجزم وينصب كما هو حكم الفاء والواو.

وقال ابن هشام أيضاً مركزاً على الفكرة ذاتها: "ونظيره إجازة الزجاج والزمخشري في ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق ﴾ كون تكتموا مجزوماً، وكونه منصوباً، مع أن النصب معناه النهي عن الجمع"[٣٣]. يعقب ابن هشام على عبارة الإمام (أبو زكريا) النووي الذي راى أن الحرف (ثم) بنصبه المضارع أفاد معنى الجمع، ولكن النصب كما في الآية: ﴿ولا تلبسوا... وتكتموا الحق﴾ تنهى عن الجمع.

ويربط سيبويه بين الفاء وثم ويرى أنهما يؤديان أحياناً عملاً مطابقاً، إذ قال: "هذا باب ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره في غير الأمر والنهي وذلك قولك أخذته بدرهم فصاعداً، وأخذته بدرهم فزائداً حذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه"[٣٤].

وقال في المقام نفسه: "فالواو لم ترد في هذا المعنى ولم تلزم الواو شيئين أن يكون أحدهما بعد الآخر"[٣٥] ، يريد سيبويه الترتيب، فالحرف (ثم) والحرف الفاء يدلان على الترتيب، ولكن الواو لا تدل، فكان الحرف (ثم) بمنزلة الفاء في إفادة الترتيب في جملة: أخذته بدرهم فصاعداً، ولذلك قال سيبويه بوضوح تام يعبر عن هذه الفكرة: "ثم بمنزلة الفاء تقول: ثم صاعداً إلا أن الفاء أكثر في كلامهم"[٣٦].

ثُمّ للابتداء كالواو والفاء:

كان الالتفات إلى (ثم) أنها تفيد الابتداء في كتب النحو المختلفة قليلاً، ولا نستطيع تحديد سبب لذلك، فهذه الوظيفة لهذا الحرف مهمة جداً، لأن فهم آيات عدة في القرآن الكريم فهماً صحيحاً يعتمد عليها، فوظيفة الابتداء مهمة، وستظهر أفكار العلماء الذين ذكروا هذه الوظيفة كما ستُظهر وظيفة الابتداء فيه فهم آياتٍ كريمة كان يصعب فهمها من دون الاستناد إلى قيمة (الابتداء) في هذا الحرف.

قال المرادي: "ذكر صاحب (رصف المباني)[*] أن لـ (ثُمّ) في الكلام موضعين، الأول أن تكون حرف عطف يعطف مفرداً على مفرد وجملة على جملة، والثاني أن تكون حرف ابتداء، إما أن تكون حرف ابتداء على الاصطلاح أي يكون بعدها المبتدأ والخبر، وإما ابتداء الكلام، فالأول نحو أن تقول: أقول لك اضرب زيداً، ثم أنت تترك الضرب، ومنه قوله تعالى: ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم مشركون﴾ وابتداء الكلام كقولك: هذا زيد قد خرج ثم إنك تجلس، قال الله عز وجل ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾، وقد يرجع هذا إلى عطف الجمل إذا كانت الجملتان في كلام واحد، وذلك بحسب إرادة المتكلم، والأظهر في القول

---

[*] مؤلف (رصف المباني) هو أحمد بن عبد النور المالقي المتوفى سنة ٧٠٢هـ، وذكر محقق كتاب الجنى الداني أن كتاب وصف المباني مازال مخطوطاً وهو تحت التحقيق واسمه كاملاً: رصف المباني في شرح حروف المعاني.

الانفصال في المراد إلا حيث يدل الدليل على أن مقصود الكلام واحد. ولا يصح كونها حرف ابتداء وإنما هي حرف عطف تعطف جملة على جملة كما تعطف مفرداً على مفرد-والله أعلم"[٣٧].

ولا يدري الباحث ما الذي جعل المرادي يقول (ولا يصح كونها حرف ابتداء)، إن الأمثلة التي ضربها (رصف المباني) تبين بياناً شافياً أن (ثم) لم تعطف التالي على السابق ولا يجوز فيها العطف، فجملة: أقول لك اضرب زيداً ثم أنت تترك الضرب! لا يجوز فيها عطف الجملة على الجملة لأن الثانية لم تشترك في الحكم مع الأولى، إنهما موقفان متعارضان، فهذا الموقف ليس كما تفيد حروف العطف في قوله تعالى: ﴿أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره﴾، فالأفعال متعاطفة، وفاعلها واحد وهو الله تعالى جل جلاله. كما لا يجوز عطف مفرد على مفرد، فلا نستطيع أن نعطف (أنت) على أي كلمة سابقة، فهذا المثل يختلف عن قوله تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة﴾. إذ النطفة معطوفة على تراب، كما يختلف عن قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة﴾[٣٨]، ويختلف عن قول سيبويه "مررت برجل ثم امرأة" إذ العطف والتشريك والترتيب والمهلة أمور واضحة في هذه الأمثلة، ولكنها في مثال: (أقول لك اضرب زيداً ثم أنت تترك الضرب) شيء مختلف.

كان قول (رصف المباني) دقيقاً، وأعطت الأمثلة المتعددة قوة لهذه المصداقية، لقد بدا أن (ثم) في الآيات الكريمة التي ذكرت والتي وقع فيها جدال في فهم (ثم) وتأويلها بدا أنها للابتداء فالفعل ينجيكم في قوله تعالى: ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ يدل على أن الإنجاء من الله تعالى، فالذي عمل هو الله، ولكن آخر الآية (ثم أنتم مشركون) تدل على عمل من المشركين وليس من لله تعالى، فليس ثمة تشريك أبداً، إنه كلام ابتداء، وكذلك الآيات التي ذكرها (رصف المباني) وكانت عبارته (والأظهر في القول الانفصال في المراد) معبرة

عن هذا الابتداء، فلم يكن لاعتراض المرادي وجاهةً، ولم يسند اعتراضه بـإبراز مفهوم عن (ثم) يعطي بياناً عن ثم غير الذي أعطاه رصف المباني.

ونتوقف بعد إيضاح رصف المباني عند مقالة سيبويه عن (ثم)، وقد ركز فيها على الابتداء، قال سيبويه: "وتقول: إن تأتني آتك فأحدثْك، هـذا الوجـه. وإن شئت ابتدأت، وكذلك الواو و(ثم)، وإن شئت نصبت بالواو والفاء كما نصبت ما كان بين المجزومين"[٣٩]، إن عبارة سيبويه (وإن شئت ابتدأت) تدل علـى أن الابتداء هو الوجه الثاني، أي تصبح الفاء للابتداء وهو مـا نعرفـه الآن بفـاء الاستئناف، وتحل (ثم) في هذا الاستعمال محل (ثم) فتكون للاسـتئناف، أي: إنْ تأتني آتك ثم أحدثك، فيقدر مبتدأ بعد الحرف (ثم)، إن تأتني أتك ثم أنا أحدثـك، وقال سيبويه: "ولم يجعلوها ما يضمر بعده أن وليس يدخلها من المعـاني مـا يدخل في الفاء وليس معناها معنى الواو، ولكنها تشرك ويبتدأ بها واعلم أن (ثـم) إذا أدخلته على الفعل بين المجزومين لم يكن إلا جزماً لأنه ليس مما ينصـبُ ولا يحسن الابتداء به لأن ما قبله منقطع وكذلك الفاء والواو إذا لم ترد بهن النصـب فإذا أنقضى الكلام ثم جئت بـ (ثم) فإن شئت جزمت وإن شئت رفعت وكذلـك الواو والفاء، قال الله تعالى: ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصـرون﴾[٤٠]، وقال تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[٤١]. إلا أنـه قد يجوز النصب بالفاء والواو"[٤٢].

لقد عبّر سيبويه عن عملها أصدق تعبير، وبيّن وظيفة (ثم) بياناً شـاملاً، نستطيع أن نتوقف كثيراً عند عبارتيه (ولكنها تشرك بها ويبتدأ)، و(فإذا انقضـى الكلام ثم جئت بـ (ثم) فإن شئت جزمت وإن شئت رفعت وكذلك الواو والفاء).

أمثلة قرآنية وحديثية عن ثم الابتدائية:

أ- من القرآن الكريم:

إذا قلنا (ثم) حرف ابتداء، فهي عندئذ ليست (ثم) العاطفة التي تفيد التشريك والترتيب والمهلة، وإنما هي الآن حرف (استئناف)، كما كانت الواو والفاء حرفي استئناف وتعرب الجملة بعدها مبتدأ وخبراً، أو كما تعرب أي جملة ابتدائية. وهذه أمثلة من ذلك:

١- قال سبحانه: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الأخيرة﴾ -٣٠/١٠.

٢- قال سبحانه:﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ - الأنعام١.

٣- قال سبحانه: ﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن عليها لشوباً من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ -الصافات٦٧.

٤- ﴿واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم﴾ - لقمان ١٥.

٥- ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمى عنده ثم أنتم تمترون﴾ - الأنعام٢.

٦- ﴿قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه يرجعون ﴾ - ٤٤.

٧- ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصادوا الجحيم﴾ - المطففين ١٥-١٦.

٨- ﴿ثم لننزعن من كل شيعةٍ أيهم أشد على الرحمن عتيّا ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ - مريم ٧٠.

٩- -﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ - الحج ٣٣.

ب- من الحديث الشريف:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد"(٤٣).

٢- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت يا رسول الله أُخلَّف بعد أصحابي؟ فقال: "إنك لن تخلف فتعمل عملاً صالحاً إلا ازددت به درجة ورفعة، ثم لعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضربك آخرون. اللهم امضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردَّهم على أعقابهم لكن البائس سعد بن خولة"(٤٤) يرثي له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة.

٣- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يبولنّ أحدُكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل منه. قال ابن هشام "أن ابن مالك أجاز ثلاثة أوجه: الرفع بتقدير (ثم هو يغتسل)، وبه جاءت الرواية، والجزم بالعطف على موضع فعل النهي، والنصب"(٤٥).

ملاحظات:

١- يستفاد من هذه الأمثلة وتلك أنّ (ثم) تأتي لبدء جملة جديدة تعرب كما تعرب الجمل الابتدائية، ويستفاد أيضاً أن هذه الجمل الابتدائية قد يكون أولها فعلاً فيقدر المبتدأ قبله كما قدره ابن مالك في عبارة (ثم يغتسل) منه، فوضع الضمير (هو) بعد الحرف (ثم) فصارت: ثم هو يغتسل منه.

٢- إن التمسك بقاعدة (ثم) كحرف عطف للتشريك والترتيب والمهلة، جعل بعض النحاة يؤولون ويغرقون في التأويل لأن هذه القاعدة هي إحدى وجهيْ (ثم)، ولابد من التعمق في فهم الوجه الآخر كما تفهمنا الوجه

الأول، إن عبارة سيبويه عن (ثم) لا تترك إشكالاً ولا خلافاً.

٣- سيكون تناول الآيات التي وقع فيها الخلاف بسبب ما يعنيه الحرف (ثم) من معانٍ قائماً على تطبيق وجهَيْ (ثم)، وليس تطبيق وجه واحد، فالموقع إما للعطف وإما للابتداء.

الحلول بعيداً عن التأويل:

ينطلق الحل في الآيات الكريمة الخمس التي ذكرت سابقاً وفي الآيات الأخرى التي تماثلها من القاعدة البسيطة الميسرة التي وضعها سيبويه إذ قال: "وتقول إن تأتني آتِكَ فأحدثك، هذا هو الوجه وإن شئت ابتدأت"(٤٦)، وإذ قال أيضاً "ولكنها تشرك ويبتدأ بها"(٤٧) ، ومن القاعدة ذاتها التي أخذ بها كتاب رصف المباني وهي لا تبتعد في فكرتها عن رأي سيبويه، إذ قال: "إن لـ (ثم) في الكلام موضعين: الأول أن تكون حرف عطف يعطف بها مفرداً على مفرد أو جملة على جملة والثاني أن تكون حرف ابتداء"(٤٨).

وأظن أنّ الأمثلة التي ضربها (رصف المباني) كانت واضحةً في وظيفة (ثم) في تلك الأمثلة، فهي للابتداء فحسب، فالمثل الذي في آية ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب، ثمَّ أنتم مشركون﴾ تفيد (ثم) الابتداء، وما بعدها مبتدأ وخبر؛ فالضمير (أنتم) مبتدأ، وكلمة (مشركون) خبر. وهذا المثل يجري على عشوات الأمثلة المشابهة له في القرآن الكريم، وقد ذكر الباحث تسعة أمثلة ولكن الأمثلة كثيرة جداً، لقد ذكرت التسعة تحت عنوان (أمثلة قرآنية عن ثم الابتدائية)؛ وكانت (ثم) متلوة فيها بجمل اسمية؛ وتفيد هذه الآيات التسع وما شابهها المعادلة بين حالتين، إيمان وكفر، تصديق وتكذيب أو ما شابه ذلك.

وأما إذا جاءت (ثم) متلوة بفعل، فقد يسّر سيبويه طريق الحل بأن جعل الاسم مقدراً قبل الفعل، أي جعل الجملة ابتدائية، ويسره بوضوح أكثر ابن مالك إذ جعل (ثم) في الحديث الشريف ابتدائية فقال جاء في الحديث الشريف (لا يبولن

أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل منه)، قال ابن هشام: "إن ابن مالك أجاز ثلاثة أوجه: الرفع بتقدير: ثم هو يغتسل منه، وبه جاءت الرواية"[٤٩]، وقد سبق أن ذكرت الرواية كاملة.

إذاً، من هنا نبدأ: إن جميع المواضع التي وقعت فيها الحيرة تحل بـ (ثم) الابتدائية، ولعلي أصيب الحقيقة إذ أذكر عبارة الزمخشري وهو يفسر موقع (ثم) في قوله تعالى: ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾، قال الزمخشري "فعطفها بـ (ثم) على الآية الأولى للدلالة على مباينتها فضلاً ومزية"، إن هذه العبارة الجميلة الفاعلة هي التي يستحسن منا أن نذكرها بعد جميع المواضع التي كانت (ثم) متلوة فيها بفعل.

إذاً، تعرب الجمل التي بعد (ثم) على وجهين، إما أن تكون (ثم) عاطفة فتشرك وترتب بمهلة، وإما أن تكون ابتدائية فيأتي بعدها جملة اسمية تتركب من مبتدأ وخبر، وهما مذكوران في الجملة، أو مبتدأ يقدر قبل الفعل التالي للحرف (ثم)، ويفيدنا في هذه الحالة فضلاً ومزية؛ إن هذا يجري على قوله تعالى: ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾-آل عمران١١١" ويجري على: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾، ويجري على ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ثم آتينا موسى الكتاب﴾.

ليس من الضروري أن نخوض في أبيات الشعر، فللشعر ضروراته الشعرية، وله مناكفاته، ولكن لا يصح أن ينال القرآن شيٌ من هذا، ولذلك نجعل التطبيق من كتاب الله تعالى، إذ ما ورد فيه من الأمثلة كثير.

وبهذا نستطيع أن نقدم النحو برأي واحد موحد، وفكرة واحدة بعيداً عن التأويل الذي تستصعبه النفوس، وأكرر القول: إن النحاة السابقين قدموا بحراً من النحو وعلينا الآن التعامل مع السواقي.

تنبيه:

هذه أفكار جزئية تتعلق (بثم)، نذكرها كالتكحل في العينين، لأخذ مزيد من الخير وهذه نقاط هذا التنبيه.

١- ذكر بعضهم أن الثاء في (ثم) قد يحل محلها الفاء فتصبح (فُمَّ)، وقد تأتي ثُمتَ وثُمتْ، بفتح التّاء أو إسكانها.

٢- وذكر ابن هشام أن الطبري وقع في الاشتباه في ثُم وثَمَّ، قال الطبري. "أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به، معناه أهنالك وليست ثم التي تأتي للعطف، انتهى، وهذا وهم اشتبه عليه ثم المضمومة الثاء بالمفتوحتها، ثم بالفتح اسم (يشار به إلى المكان البعيد) نحو ﴿وأزلفنا ثمَّ الآخرين﴾، وهو ظرف لا يتصرف فلذلك غلط من أعربه مفعولاً لرأيت في قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت ثمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ ولا يتقدمه حرف تنبيه ولا يتأخر عنه كاف الخطاب"(٥٠).

٣- إذاً ثم اسم إشارة مثل ذا، ولكن لا تسبقه هاء (هذا) ولا تلحق به كاف الخطاب (ذاك). ولله الحمد والمنة.

حواشـــي البحث:

١- **سورة الزمر** ٦.

٢- **سورة الأنعام** ٦٤.

٣- أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر، سيبويه، **كتاب سيبويه**، تحقيـــق عبـد السلام هارون (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتـــاب، ١٣٩٧هـــ - ١٩٧٧م)، حـــ١، ص٤٢٩ .

٤- جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي، **الكوكب الدري**، ط١ (الكويـت: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ١٩٨٤م) .

٥- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل، **شرح ابن عقيل على ألفية ابـن مالك**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة الســـعادة، وبيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٤م، حـــ٢ ص ٢٢٧.

٦- عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي، **الاتقان في علـــوم القـــرآن**، ط٤ (القاهرة: شركة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٨م)، حـــ١ ص٢٠٩ .

٧- الأشموني، **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**، تحقيق محمد محيي الديـــن عبد الحميد، (بيروت لبنان: دار الكتاب العربي، ١٩٥٥)،حـــ٢ ، ص ٤١٧.

٨- أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام، **قطر الندى**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ص ٣٠٣.

٩- ابن الحاجب، **الإيضاح في شرح المفصل**، تحقيـــق د. موســـى بنـــاني العليلي (بغداد: مطبعة العاني)، ص ٢٠٧.

١٠- الحسن بن قاسم المرادي، **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ٤٢٦.

١١- جمال الدين ابن مالك، **التسهيل لابن مالك**، تحقيق محمد كامل بركات (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨م)، ص ١٧٥.

١٢- الأشموني، **المصدر المذكور**، حـ٢ ص ٢٠٧.

١٣- **سورة طه** ٨٢.

١٤- ابن الحاجب، **المصدر المذكور**، ص ٢٠٧.

١٥- القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآيات ٦٨-٧٠.

١٦- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، **المفصل في علم العربية**، ط٢ (لبنان بيروت: دار الجيل)، ص ٣٠٤.

١٧- سيبويه، **المصدر المذكور**، حـ٣ ، ص ٥٠١.

١٨- الأشموني، **المصدر المذكور**، حـ٢، ص ٤١٨.

١٩- **نفسه**، حـ٢ ، ص٤١٨.

٢٠- أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام، **مغني اللبيب**، تحقيق محمد حميي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الكتاب العربي)، حـ١،ص١١٨.

٢١- المرادي، **المصدر المذكور**، ص ٤٣٠.

٢٢- **نفسه**، ص ٤٦.

٢٣- الأسنوي، **المصدر المذكور**، ص ٣٢٠ .

٢٤- **سورة التوبة** ٢٥.

٢٥- **سورة الزمر** ٦.

٢٦- **سورة السجدة** ٨.

٢٧- **سورة طه** ٨٢.

٢٨- **سورة الأنعام** ١٥٣-١٥٤.

٢٩- عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ط٤ (القاهرة: شركة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٨م)، حـ١، ص٢٠٩.

٣٠- ابن هشام، **المصدر المذكور** ، حـ١ ، ص ١١٧.

٣١- الأشموني، **المصدر المذكور**، حـ٢ ، ص٤١٧.

٣٢- ابن هشام، **المصدر المذكور**، حـ١ ، ص ١١٩.

٣٣- **نفسه**، حـ١، ص ١١٩.

٣٤- سيبويه، **المصدر المذكور**، حـ١ ، ص ٢٩١.

٣٥- **نفسه**، حـ١ ، ص ٢١٩.

٣٦- **نفسه**، حـ١ ص٢١٩.

٣٧- المرادي، **المصدر المذكور**، ص ٤٣٠.

٣٨- **سورة البقرة** ، ٣١.

٣٩- سيبويه، **المصدر المذكور**، حـ٣ ، ص ٨٩.

٤٠- **سورة آل عمران**، ١١١.

٤١- **سورة محمد**، ٣٨.

٤٢- سيبويه، **المصدر المذكور**، حـ٣ ، ص٩٠.

٤٣- الإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي، **مختصر صحيح البخاري**، تحقيق إبراهيم بركة ومراجعة أحمد عرموش (دار النفائس، ١٩٨٤)، حـ١ ص١٢١.

٤٤- **نفسه**، حـ١ ، ص ١٥٤.

٤٥- ابن هشام، **المصدر المذكور**، حـ١ ، ص ١١٩.

٤٦- سيبويه، **المصدر المذكور**، حـ٣، ص ٨٩.

٤٧- **نفسه**، ص ٩٠.

٤٨- المرادي ، **المصدر المذكور**، ص ٤٣٢.

٤٩- ابن هشام، **المصدر المذكور**، حـ١، ص ١١٩.

٥٠- **نفسه**، حـ١ ، ص ١١٩.